الادب العباسي

المحاضرة الثانية

ادب العميان والمكفوفين في العصر العباسي

اعداد : سرى حسين اسعد

بأشراف : د. زينب الخفاجي

حَفل الموروث الشعري العربي بنتاج هائل لا نظير له من الأعمال الشعرية لشعراء استطاعوا أن يحفروا لأنفسهم كوة نطل من خلالها اليوم على تاريخ ثقافي وأدبي طويل كتبوه بمداد من نور، وتفيض الكتب والمراجع التاريخية بسير هؤلاء الشعراء وأعمالهم وإسهاماتهم، ومن خلال هذه المحاضرة نتعرف على دور العاهة في إبداع هؤلاء الشعراء، ومدى انعكاس العمى وتأثيره في شخصيتهم وأشعارهم، وطبيعة التصوير الحسي في أشعارهم، وأبرز إسهاماتهم في الشعر والثقافة العربية، ومن أبرز هؤلاء الشعراء هم بشار بن برد، وأبي العلاء المعري، وعلي بن جبلة وابو العباس التطيلي

الشعر لدى الشعراء العميان له من الحضور في الساحة الشعرية فقد اهتمت الدراسات قديماً وحديثاً بشعرهم، والوقوف على جماليات إبداعهم وتألقهم. وكان من جماليات إبداعهم وتألقهم

تمكن العميان رغم فقدانهم لحاسة البصر، من تقديم مناذج مشرفة

وتصاوير بديعة في أشعارهم، وأصبح التصوير متأصلاً في أشعارهم رغم

منهم في وصف الصورة بشكل دقيق، واعتمدوا على حواسهم الأخرى

واتصالهم بالبيئة المحيطة وثقافة المجتمع الذي يعيشون فيه، لتشكيل

تلك الصور البديعة، والدوافع وراء اعتامدهم على التصوير متعددة

منها محاولات لإثبات ذواتهم أو اعتزازاً بأنفسهم أو لارتباطهم بتراثهم

وثقافتهم ..

يحاول الكفيف أي (الأعمى) التفرد وإثبات ذاته دائما ليقنع نفسه والاخرين انه قوي الارادة ولافرق بينه وبين المبصرين سوى الرؤية واكد الصفدي في حديثه هذا الامر بقوله ((اخبرني الشيخ شمس الدين المعروف ب الاكفاني قال : كان بالديار المصرية ضرير يقرىء الطلبة كتاب اقليدس ويضع اشكاله لهم بالشمع وهذا اغرب مايكون))

لم يكتف العميان بهذا الامر فقط وانما وصلوا غمار اثبات الذات وابدعوا في اشعارهم وتطرقوا الى موضوعات عديدة منها :

1_ تحدي العاهة

2_الاعتزاز بالنفس

3_ الحب والغزل

4_ الاتصال بالخلفاء وذوي النفوذ

اولا : تحدي العاهة

ان العاهة واقع مؤلم في حياة المبتلين بها ولها اثر بالغ على افعالهم ومواقفهم ولكن الشعراء المعاهين وخاصة العميان واجهوا تلك العاهة وتحدثوا عنها من خلال اشعارهم

فمنهم بشار بن برد كانت لديه علاقة بمحنته علاقة معايشة ومناصرة فقال بيت شعري محاولا للتعبير عن مكانة شخص لديه وتشبيهه بنور العين لايقدر على فراقه يقول بشار:

نور عيني تركت قلبي جناحا يوم فارقتني فحن وناحا

اما ابي العلاء المعري لم يخجل من استخدام لفظة العرجان او العميان في شعره ولم يجد خجلا في استخدام تلك الافاظ فقال وهو يتحدث عن الصدق الذي لا يظن وجوده في محدثه :

لو كنت فيما قلته صادقا لم تغد للشر بهميان

ولم تكن ترغب في زيف تؤخذ من عرج وعميان

اما ابو العيناء فقد تحدى عاهته بامتلاكه قوة العقل وذكاء القلب ونور السمع وفصاحة اللسان فقال :

ان يأخذ الله من عيني نورهما ففي لساني وسمعي منهما نور

وايضا نجد ان ابا علي البصير متأثر بأبي العيناء في حديثه عن عاهته فهو ايضآ يعترف بفقد بصره ولكن ليس للعمى قيمة امام قوة العقل فقال :

لقد يستضيء القوم بي في امورهم ويخبو ضياء العين والرأي ثاقب

وكان الوضع يختلف عند بعض الشعراء منهم صالح بن عبد القدوس فكان يجد فراق نور عينيه فراق للحياة واخذ يبكي عاهته ويرثي عينيه في بعض الابيات الشعرية وكذلك ابي الشيص ايضا كان يبكي فراق عينيه , اما ربيعه الرقي كان لم يعترف بعاهته

ويتعايش معها كأنها لم تحدث , وهكذا كان الشعراء العميان يتحدثون عن عاهتهم واختلاف وجهات نظرهم ما بين باكي عليها وعلى فقدان بصره ومابين مستمتع بها وفخور بقوة العقل وسلامة القلب ويرجع ذلك الاختلاف الى امرين :

احدهما تباين زمن العاهة من شاعر الى اخر

والثاني ربما كان الشاعر محتفظا ببعض الذكريات البصرية قبل عاهته

ثانيا : الاعتزاز بالنفس

لقد حاول الشعراء العميان اثبات ذواتهم فحبوا وتغزلوا وابدعوا ومدحوا الخلفاء وكان كل ذلك برافع تحدي العاهة واثبات ذواتهم وكل شاعر منهم كان معتزا بنفسه فخورا بما يقدمه .

وكان بشار بن برد من هؤلاء الشعراء الذين اعتزوا بانفسهم , وايضا نجد ابو العلاء المعري رافضا البكاء ورافضا ان يظهر ضعفه يقول :

قبيح ان يحس نحيب باك اذا حان الردي فقضيت نحبي

لقد كان الشعراء العميان خير مثال يحتذى به لتحدي العاهة وتجاوزها فقد تمكنوا من اثبات ذواتهم وتحدوا عاهتهم واعتزوا بانفسهم وبما لديهم من امكانات وقدرات .

ثالثا : الحب والغزل

لقد اختلف الشعراء المكفوفين في مواقفهم من الحب ورغم ان حاسة البصر هي احد ابواب القلب الا ان هؤلاء الشعراء استطاعوا التغلب على هذا الامر وتحدوا انفسهم وتغزلوا اثباتا للذات معتمدين على المبالغة اذ رافقت المبالغة معظم الشعراء المكفوفين وبخاصة الشعر تالذي يصور مشاعرهم لكن المبالغة لاتنفي صدق احاسيسهم ومشاعرهم

ومن الشعراء الذين بلغوا مبلغا عظيما في الحب ربيعة الرقي فجعلوه معبود النساء واخذوا يتنافسون عليه ويقدمن اليه الدعوة لزيارتهن , وايضا نجد ان بشار بن برد هو شاعر محب و ولهان يخشى ان يسمي حبيبته حتى لايعرفها احد ويخشى عليها من الحاسدين ويغار عليها من الرجال , اما ابو علاء المعري فقد وصف المرأة وصورها في اقبح صورة حيث جعلها متهالكة وخداعة ومحتاة كذابة وقليلة الامانة كثيرة الخيانة .

رابعا : الاتصال بالخلفاء وذوي النفوذ

لاشك ان الشاعر كي يبقى ذكره ويخلد شعره لابد ان يكون معروفا بين الخلفاء وذوي النفوذ ولم يكن هذا الامر مقتصر على الشعراء المبصرين فقط وانما الشعراء العميان كان لهم نصيب من هذه المكانة فكانوا يقتربون الى الملوك والخلفاء والامراء وينشدون اشعارهم وكان ذلك يعزز اثبات ذواتهم ويزيد من ثقتهم بانفسهم , وكان بشار معروفا بغزله وبفحش قوله ووصل هذا الامر للخليفة المهدي فتدخل الخليفة ليمنعه فكتب بشار بعض الابيات متباهيا بصلته بالمهدي وتصريحا انه قد ترك الجواري رغبة في رضا

الخليفة , اما ابو العيناء يمدح امير المؤمنين المامون ويجعله سببا للبقاء على الحياة فيقول :

لقد رجوتك دون الناس كلهم وللرجاء حقوق كلها تجب

ان لم يكن لي اسباب اعيش بها ففي العلا لك اخلاق هي السبب

دوافع تعويض المفقودين الحواس :

ان الكفيف يعيش في عالم خاص به وقد يصل الى صراع نفسي مابين الاستسلام للعاهة او تحدي عاهته واثبات ذاته , وهذا العالم الخاص بالكفيف تسيطر عليه الاحتياجات النفسية للمكفوف ومنها :

1_يحتاج الى الحرية في الخروج للمجتمع واختيار الاصدقاء

2_المكفوف بحاجة الى الانتماء وتكوين علاقات مع الاخرين

3_ الشعور بالامن وعدم الخوف

4_ يحتاج الى فهم نفسه والشعور بالرضا عنها

5_ اكتساب عادات ومهارات الحياة اليومية

6_ يحتاج المعوق بصريا ان يشعر بقيمته الذاتية

7_اشباع الميول وتنمية المهارات

8_ اكتساب القيم الجمالية واساليب التعبير الفنية

9_ يحتاج الثقة في نفسه وانه مستقل وله خصوصية

اذآ كل تلك الدوافع تبرهن اعتماد المكفوفين او اصحاب العاهات بشكل عام على هذا الاسلوب المشترك بينهم الا وهو (التعويض) وهناك عدة مجالات لسلوك التعويض منا التعويض بالسمع ,, التعويض باللمس ,, التعويض بالشم ,, التعويض بالتذوق .

التعويض بالسمع :

ان حاسة السمع من الحواس التي يعتمد عليها المعاق بصريآ اعتمادا رئيسيا في تعويض جانب كبير من جوانب النقص في الخبرة وان المكفوف يستطيع عن طريق حاسة السمع ان يحصل على معلومات كثيرة فهو عن طريق السمع يستطيع ان يحدد مصدر الصوت واتجاهه ودرجته وغيرها , ويعتمد الشاعر الكفيف خاصة على حاسة السمع لتحريك المشاعر واثارة الذهن , فالكفيف يميل بصفة طبيعية الى الاهتمام بالحديث والمعارف السمعية وبالجانب الدلالي للصوت لان السمع عماد الكفيف في صلاته الاجتماعية .

نجد بشار بن برد يستفسر عن رسالة وصلته تحمل معنى الذم وهو لايعرف السبب فقال لها حدثيني ليعرف من خلال السمع غرض المتحدث فقال :

حدثيني عن كتاب جاءني منك بالذم وما كنت اذم

وهكذا بالنسبة للشعراء الباقين ابو العلاء المعري وابو العيناء وصالح بن عبد القدوس وابو الشيص وعلي بن جبلة .

التعويض باللمس :

ان حاسة اللمس لدى الكفيف اكثر صلابة مما عليه عند المبصرين وان الكفيف يعتمد اعتمادا كليا على يديه في حياته فهي العضو الذي يمكنه اكتشاف مدركات العالم المحيط وعن طريقه تتحرك مشاعره , قال بشار :

وحلبت كفي لقوم حلبا فلم ارشح لعشير ضبا

يقصد الشاعر بقوله (حلبت كفي) ان يديه قد افاضت بالعطاء فعبر عن المعنى بصورة حسية لمسية .

وايضا نجد ابو علاء المعري قد استخدم حاسة اللمس في كثير من الابيات الشعرية وايضا ابو علي البصير استخدم حاسة اللمس في الغزل اما علي بن جبلة استخدم التعويض باللمس في مديح حميد الطوسي , اما ابو العيناء فقد استخدمها في قصيدة ليشكو الوزير للخليفة .

نرى ان الشعراء قد اعتمدوا على الحواس الاخرى تعويضا لفقدانهم حاسة البصر فقد استخدموا حاسة اللمس وجعلوا الكف يجود بالعطاء والكرم والحب سهم يصيب العاشقين وغيرها من الصور اللمسية .

التعويض بالشم :

تعد حاسة الشم وسيلة هامة للمكفوفين للتعويض عن فقدان البصر فعن طريقها يتمكن الشاعر الكفيف من الادراك ومعرفة كل ماتعجز عيناه عن رؤيته وان هذه الحاسة اقوى عند الكفيف من المبصر لان المبصر يهتم بما يرى وتقع عليه عيناه فقط اما الكفيف فانه يهتم بالتفاصيل الدقيقة ويسرح بخياله ويبدع في رسم الصورة , فنجد بشار يصف اسنان محبوبته الجميلة واهتم برائحة فمها العطر وهويعتمد على حاسة الشم وايضأ من لطيف شعر ابوعلي البصير انه حعل الثياب من شدة جماله يفوح منه العطر وهي صورة تقوم على خاسة الشم اما ابو الشيص فقد اعتمد على حاسة الشم في وصفه للخمر والزعفران فهو يعبر عن جمال الخمر من رائحتها التي تشبه المسك كما ان الزعفران دهانا طيبا للجلد ذو رائحة عطرة , هكذا فقد استخدم الشعراء التعويض الشمي في وصف فم المحبوبة ورائحته العطرة والمسك الذي يهفو على ملابسها واستعانوا بحاسة الشم لادراك ماحولهم تعويضا عن فقدانهم البصري .

التعويض بالتذوق :

تعين حاسة التذوق الكفيف على ادراك ما لايدركه بصره فتمكنه من التعرف على الطعام والشراب , نجد بشار بن برد في ابيات يصور العطاء بالطعام اللذيذ ويجعل للجواد لذة وللقاء لذة اخرى يستطعمهما , اما صالح بن عبد القدوس قد برهن من خلال ابياته ان صلته بالواقع قائمة على المأكل والمشرب , ونجد ابو العلاء المعري يصور رؤيته للحياة ومايتعرض لها من عثرات انها سواسية سواء الحلو منها او المر اي انه استخدم التذوق للتعبير عن صور الحياة وحلو الحياة ومرارة الحياة , اما علي بن جبلة فانه استخد حاسة التذوق في مدح الطوسيؤ فقال ان نهر دجلة يسقي جميع الناس على اختلافهم وكثرتهم والطوسي يطعم من ورد دجلة الناس وقد خص الشاعر الطعام كصورة من صور ادراك

الكرم من ناحية تذويقه , اما ابو علي الشيص فقد استخدم التعويض بالتذوق في الغزل فقد تغزل في محبوبته ووصف عينيها بالخمر , ولم يكن ابو العيناء بعيدا عن هذا الاتجاه فقد كتب مقطوعة شعرية معتمدا فيها على حاسة التذوق ليعبر عن الفترة التي قضاها عندما نزل دير باشهرا فقد استطعم لذة الحياة فيه وشرب الخمر وتلاعب بالكاس .

واخيرا نرى ان حاسة التذوق لها دور هام في حياة الكفيف لادراك الحياة حوله فالشاعر الكفيف استطاع ان يحول المعنويات الى محسوسات ليتمكن من تذوقها , فنجد العطاء له طعم يذاق ولعين المحبوبة لذة كلذة الخمر, وكل هذه الصور ماهي الا محاولات من الشعراء المكفوفين لتعويض فقدانهم حاسة البصر .

أثر البيئة في أدب المكفوفين

إن من ابرز الآثار التي خلفها العمى في شخصية الشعراء المكفوفين أنهم مالوا إلى الاعتداد بأنفسهم، إذ يرفع العمى من قدر أنفسهم تعويضاً عن النقص، كذلك كان للعمى دوراً هاماً في تقوية حاسة السمع لديهم، إذ يتخذونها بديلاً عن البصر ويحاولون بها تعويض النقص في حياتهم، أما بالنسبة لبشار بن برد فكان شديد المفاخرة بفصاحته وشاعريته، وقد امتلك ناصية البيان، بسبب رحيلة إلى البادية في مقتبل عمره، وتعرف على أصول اللغة هناك لأن البادية قد حافظت على نقاء لغتها بعيداً عما شابها من ألفاظ دخيلة، كما أقام في بادية البصرة مدة من الزمن قويت فيها سليقته العربية وصقلت موهبته الشعرية، وكان بن برد على اتصال بعلماء اللغة في ذلك العصر، ومن الشواهد على مفاخرته قول أحمد بن المبارك عنه : حدثني أبي قال : قلت لبشار: ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه ما استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه، وإنه ليس

في شعرك ما يشك فيه قال : ومن أين يأتيني الخطأ وولدت ههنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم

وكان بشار شديد الهجاء سليط اللسان، وهجا بشار معارضية ومعاصريه، وكانوا يبكون في كثير من الأحيان خوفاً من لسانه، وكان العمى محرك بشار الأساسي للاهتمام بشعر الهجاء الذي وجد من خلاله ذاته، وسعى به لينال من خصومه، ويدرك به حاجاته، بعد أن طوقته طبيعته بالعمى، فكان العمى في بعض الأحيان وسيلته للدفاع عن نفسه ضد من يستهزئون به ويتهمونه بالعمى والقبح الذي انعكس على سلوكه فنجده متخبطاً في موالاته فتارة يلوذ بالعب وتارة يلوذ بالفرس، واستخدم بشار الهجاء كأداة للتكسب حيث جعله العمى عاجزاً عن إدراك حاجاته كالمبصرين: ويقول عن نفسه "إني وجدت الهجاء المؤلم آخذاً بطبع الشاعر من المديح الرائع، فليبالغ في الهجاء ليُخاف فيعطى"، وعلى ذلك نجد بشار اتخذ من لسانه أداة للقتل والبطش، وهو الأعمى الذي لا يستطيع أن يقتل أو يبطش حقيقة، ومن ثم هيأت له فطرته وأعانته سليقته على الهجاء، كما كان لعمى بشار أثر في غزله، حيث استغل عماه كمعطية للغزل، وذلك لأن الأذن تعشق قبل العين يقول :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

أما أبا العلاء المعري فكان شأنه كشأن أي شاعر ومؤلف آخر له خصائص في شعره ونثره وكتاباته بفعل البيئة التي عاش فيها وغير ذلك من العوامل الأخرى ، من أهم خصائص شعر وكتابات المعري الاشتمال على الأمثال والحكم والحكمة، وخصوبة الخيال، وتصويره للتاريخ والحوادث التاريخية، ورجال العرب الذين اشتهروا بفعل حوادث

تاريخية مشهورة، كما أن كتاباته تميزت بالأسلوب الساخر والمتهكم، ولا يفوتنا أن نقول أن أبرز ملامح وخصائص ما شعر و كتب أبو العلاء المعري النظرة التشاؤمية التي يحملها شعره أو نثره .

وان الشاعر يلجأ الى اقتناء الصور الفنية التي تلائم الموقف الذي هو بصدده ,قال الدكتور محمد مندور ((ان مضمون العمل الفني وهدفه يوجه الاديب نحو اختيار المبادىء الفنية الاكثر مواتاه لرسم تلك الصورة)) وهنالك مصادر عديدة يستمدوا منها الشعراء العميان للصورة الفنية ومنها :

1_ الطبيعة والبيئة وتشمل (صور الاحياء , الحيوانات , الطيور , صور النبات , صور الجماد , السماء والارض , الليل والنهار , النجوم والكواكب, الشمس والقمر والبدر , الرياح والسحب والامطار , البرق والرعد , الانهار والبحار)

2_مصادر من الحياة الاجتماعية وتشمل (الخلفاء والوزراء , الاصدقاء والاعداء, الام والمرأة المعشوقة , الحب والزواج والاسرة , الطعام والشراب والندمان وساقية الخمر, الملابس والاعياد و وسائل الترفيه , التهنئة والتعازي)

3_ الصور اللونية والحركية والمزج بينهما .

وفي النهاية ... نجد تنوع اساليب الصور الفنية عند الشعراء المكفوفين ما بين استعارة وكناية والمبالغة والاقتباس وغيرها , ولم نغفل تأثر الشعراء المكفوفين بتراثهم وثقافتهم والقرأن الكريم وحديث السابقين , وغيرها من المصادر التي خزنوا منها نقاط في اذهانهم واعادوا ترتيبها واخرجوها لنا بصورة فنية من ابدع مايكون .